

الوطنيين الى خلية حقيقية ، تمارس ، تخطط وتنفذ ، رغم صعوبة الاتصال بالقيادة في الخارج ، ورغم العلاقات التنظيمية شبه البدائية . هذه القدرة هي محصلة للتجارب الشعبية ، مع المختل ، مع تمعه وحقده وأرهابه . ثم حين تسقط المجموعة في أيدي سلطات الاحتلال ، فانها تسقط لسبب تنظيمي في خارجها ، في تنظيم فتح في الضفة الغربية . هذا السقوط من الخارج ، دليل قاطع على قدرة المكر الشمبي ، الذي يتجلى في ملافة فوزي نمر احد بالخبايا الاسرائيلية ، وتحايله عليها ، وتضليلها بشتى الاساليب الممكنة . وعند سقوطهم ، يضطر العدو الى الاعتراف بقدراتهم الخارقة . « ولكنني ما كدت افتتح الباب لأخرج الى مخزن الاسلحة حتى كانت عدة هراوات تنزل على رأسي فجأة ، وعشرات الجنود ورجال الشرطة المدججين بالاسلح ينقضون علي لاجد نفسي بعدها مكبلا بالحديد من رأسي الى قدمي . فنظرت ولدا « الياهو موزر » و« اهورن سلح » ينظران الي بعينين حادتتين ، ثم دنا مني اهورن سلح نازعا قبعته عن راسه ليضعها أمامي قائلا : « كتمت رجلا وانني اعترف » .

تجري الرواية في الفعل الماضي . انها استعادة تفصيلية لاحداث جرت فعلا . وتتوقف عند نقطة الاعتقال . هكذا لا يقدم لنا المؤلف سوى قدرة على الوصف التفصيلي الذي يأخذ بأنفاس القارئ . هنا نتساءل ، لماذا بقي التسجيل الروائي عند هذه الحدود « التسجيلية » بالمعنى المباشر والفوري للكلمة . تستطيع الرواية التسجيلية التلاعب بالزمن ، التقديم والتأخير ، حتى لا تقع فقط على تفاصيل المظاهرات ، والعمليات . نستطيع تقطيع المشاهد واضاءتها بالمعلومات او الاستنتاجات او بأحداث تقع في أماكن أخرى . يبدو ان هذا الاخلاص في التسجيل قد قاد الرواية الى منزلق كونها قماشة لرواية تسجيلية . فهي المادة الاولى التي يجب العمل عليها حتى تقدم صورة متكاملة لواقع النضال في الارض المحتلة ١٩٤٨ .

لكن يبقى لتوفيق فياض ، فضل اضاءة هذا الجانب النضالي ، الذي لا بد من متابعتة ، كي نصل الى رواية تسجيلية شاملة تكون وثيقة تاريخية لرحلة نضالية بالغة الاهمية .

مجهر شبكة العلاقات ، التي تستطيع الرواية نسجها وفتحها على افق بلا حدود .

« شرق المتوسط » ، تبقى محاولة لإبراز الزمن النفسيولوجي ، مبالغه كبرى ، لكن تجد تبريرها لنفسها في كونها صرخة ضد التبع ، والارهاب الذي نعرفه في حياتنا العربية على الجسد الانساني . لكن الصرخة ، وان كانت مشروعة من حيث المطلق ، تحتاج الى اكتشاف ارضيتها الواقعية حتى يتحول الفن الى سلاح ، كما يريد عبد الرحمن منيف على لسان أنيسة في نهاية الرواية : « ولاني أتركها الآن تسافر ، ليقراها كل الناس ، رغم كل ما فيها من اخطاء وصرخات ، لا اعتقد ان رجب يرضى عنها او يريدنا .. لكن كما قلت لكم .. انا امرأة خاطئة .. وأريد أن أتبع طريقة رجب ذاتها : ان ادفع الامور الى نهايتها .. لعل شيئا بعد ذلك يقع » .

— ٥ —

« المجموعة ٧٧٨ » ، هي تسجيل روائي متواضع ، يتخلى عن جميع الادعاءات الثقافية ، ليقدم لنا ، لوحة واقعية ، تسجيلية ، لحياة مجموعة من الشباب الفلسطينيين في عكا ، حيث يفحصول الهاجس الوطني ، الى ممارسة مسلحة ، مليئة بالبطولات والتضحيات ، تكشف مما يختزنه شعبنا من طاقات تستطيع أن تنفجر ، اذا تمكنت من الوصول الى حد أدنى من التنظيم . فوزي نمر احمد ، عبد حزبوز ، محمد حسين غريقات ، فتح الله السقا ، يوسف ابو الخير ، رامز توفيق خليفة . هذه أسماء ستبقى في ذاكرة شعبنا ، عنوانا للتضحية والنضال ، وللحس الوطني المسؤول ، الذي يتحول الى فعل سياسي — عسكري .

توفيق فياض ، لا يقدم لنا ، سوى تحقيق يروى على لسان قائد المجموعة ، بلغة بسيطة ، لا تريد شيئا . تريد فقط ان تكون أداة اتصال مباشرة . لغة لا تحفل في داخلها ، أدنى طموحات اللغة الادبية بالمعنى المتعارف عليه . انها فقط وسيلة لنقرأ من خلالها ما سبمه توفيق فياض في السجن ، تفاصيل وممارسة .

الدهش في هذا التسجيل الروائي ، هو التفاصيل اليومية . تحول مجموعة من الشباب